فيكون الضريح قائماً وسط الطبيعة دون أن يحيطوه بسياج أو يشيدوا فوقه بناء والصعوبة عندهم في اختيار مكان الدفن فانهم يلبثون مدة اسبوعين يقيمون الطقوس الدينية ويرتلون الرقى ويجهدون أنفسهم بالصلوات والاستعطافات لترشدهم الآلهة الى مكان مناسب يدفنون فيه الميت حيث يكون فيه بمأمن من أذية الارواح الشريرة في العالم الثاني ويلبث الميت طول هذه المدة مدفوناً في معبدهم .

فاذا ما اهتدوا الى مكان الدفن نقلوا اليه الميت باحتفال عظيم وهم لا يزينون ضريحه بالزهور الطبيعية بل بالصناعية ويرفعون فوقه اعلاماً من الورق الملون

وعليه فان القبر الصيني حديقة والغربي سجن ضيق

ويقول الصينيون : يكفي الانسان أن يسجن في الحياة فلماذا نسجنه ايضاً تحت الارض

ويقولون أيضاً : يكفي الانسان في هذه الحياة تلك المنازل الضيقة المتلاصقة في المدن والقرى ولماذا نضيق عليه نحن في المقابر ونحشره بين المئات والالوف من المدافن

ويقولون أيضاً : انهم يعيشون على الارض عيشة شقاء وتعاسة ولكنهم يعيشون في العالم الثاني عيشة رخاء وحرية مطلقة وهناء دائم مقيم فما أجمل الموت في الصين ! . . .

أمس واليوم

للفقيد العالم والاديب المرحوم السيد مصطفى لطفي المنفلوطي

عندي ان الفضيلة والرذيلة كالجمال والقبح أمران اعتباريان يختلفان باختلاف الامكنة والازمنة ، فكما ان الجمال في أمة قد يكون قبحاً في أمة أخرى ، كذلك الفضيلة في عصر ، قد تكون رذيلة في عصر آخر

ليست الفضائل والرذائل أسماء توقيفية كأسماء الله لا يمكن تغييرها ولا تبديلها وليست الفضيلة فضيلة إلا لأنها طريق السعادة في الحياة ولا الرذيلة رذيلة إلا لأنها طريق الشقاء فيها . فحيث تكون السعادة في صفة فهي الفضيلة وإن كانت رذيلة اللؤم . وحيث يكون الشقاء في صفة فهي الرذيلة وإن كانت فضيلة الكرم

لقد اعتاد علماء الاخلاق في كل زمان وفي كل مكان من عهد آدم الى اليوم أن ينشروا لنا في كل كتاب يؤلفونه أو رسالة يدونونها جدولين ثابتين لا ينتقلان ولا يتلحلحان . . يكتبون على رأس احداهما عنوان « الفضائل » وتحته كلمات الشجاعة والكرم والامانة والوفاء والعفة والمروءة والصدق والعدل والرحمة . وعلى رأس ثانيهما عنوان « الرذائل » وتحته كلمات الجبن والبخل والخيانة والغدر والطمع والدناءة والكذب والظلم والقسوة . وأرى انه قد آن لهم أن يعلموا أن الناس اليوم غيرهم بالامس . وان اساليب الحياة الحاضرة غير أساليب الحياة الماضية . وان كثيراً من الصفات التي كانت في عهد البداوة والسذاجة رذائل يحتويها الناس ويتبرءون ويستثقلون مكانها حتى أصبحت في هذا العصر عصر المدنية المادية المؤسسة على المنافع والمصالح حالة واقعة مقررة في نظام المجتمع البشري . وأساساً ثابتة تبنى عليها جميع أعماله وشؤونه فلا بد للناس منها ولا غنى لهم عنها . ولا مندوحة لهم ان أرادوا أن يخوضوا معترك الحياة مع خائضيه من أن يتعلموها تعلماً نظامياً ويدرسوها مع ما يدرسون من علوم الحياة التي يتوقف عليها نظام عيشهم ويتألف منها شأن سعادتهم وهنائهم

٠ ٠ ٠

كان الكرم فضيلة يوم كان الناس يحفظون الجميل لصاحبه ويعرفون له يده التي يسديها اليهم . فاذا هوى به كرمه الى الهوة من هوى الشقاء وجد من بين الذين أحسن اليهم أوجل في نفوسهم شأن احسانه من يمد اليه يد المعونة ليستنقذه من شقائه أو يرفه عليه . أما اليوم وقد أنكر الناس الجميل واستثقلوا حمله على عواتقهم بل أصبحوا يشمتون بصاحبه يوم تزل به قدمه ويصفونه بجميع ما كتب في المترادفات

من أسماء الجنون والقابه فليس الكرم فضيلة . وليس من الرأي الدعاء له والحض عليه

وكانت الرحمة فضيلة يوم كان الناس صادقين في أحاديثهم عن انفسهم فلا يعترف بالبؤس إلا البائس . ولا يلبس الاطمار إلا من يعجز عن لبس الجديد . أما اليوم وقد ذلت النفوس وسفلت المروءات فلبس ثوب الفقير غير الفقير . وانتحل البؤس غير البائس وأصبح نصف الناس كسالى متبطلين لا عمل لهم إلا التلجؤ الى ظلال القلوب الرحيمة يعتصرونها ويحلبون درها حتى تجف جفاف الحشف البالي فالرحمة هي الفقر العاجل والخسران المبين

وكانت الشجاعة الادبية فضيلة يوم كان الناس ينصرون الشجاع ويؤازرونه . ويتبعون خطواته في جميع مذاهبه التي يذهبها . فلا ينقطعون عنه حتى يظفر أو يموتوا . أما اليوم وقد ضعفت همم الناس ووهنت عزائمهم . وماتت في نفوسهم الحفائظ والغير . ووكل بعضهم أمره الى بعض . فان رأوا قائماً ينبههم بدعوة أغروه بالمضي فيها ثم وقفوا عن كثب منه ينظرون ماذا يفعل فاذا ظفر قاسموه غنيمته وان فشل خذلوه وتنكروا له فالشجاعة جنون لا يجد صاحبها من ورائها إلا التهلكة والشقاء

وكانت القناعة فضيلة يوم كان الفضل هو الميزان الذي يزن به الناس أقدار الناس وقيمهم وكان الفقر مفخرة للشريف اذا عفت يده . والغنى معرة للدني. اذا سفلت مساعيه وأغراضه وأما اليوم وقد مات كل مجد في العالم إلا المجد المالي وأصبح الناس يتعارفون بأزيائهم ومظاهرهم . قبل أن يتعارفوا بصفاتهم واعمالهم فالقناعة ذل الحياة وعارها وبؤسها الدائم وشقاؤها الطويل

وكان الغضب رذيلة يوم كان الناس يعرفون فضيلة الحلم ويقدرونها قدرها . ويطأطئون رؤوسهم بين يدي صاحبها اجلالا واعظاماً . أما وقد أصبح الناس أشراراً يحملون شرورهم على أيديهم ويدورون بها في كل مكان يطلبون لها رأساً يصبونها عليه ولا يجرمون على غير الرأس الضعيف اللين . فلا خير في الحلم والخير كل الخير في الغضب

الحياة معترك أبطاله الاشرار وأسلحتهم الرذائل . فمن إبحارتهم بغير سلاحهم هلك عند الصدمة الاولى

يجب أن يكون الناس جميعهم فضلاء ليسعدوا بفضيلتهم فان عجزوا عن ذلك فليكونوا جميعاً أدنياء ليتقي بعضهم بأس بعض . أما أن يتقلد سوادهم سلاح الرذيلة والنزر القليل منهم سلاح الفضيلة وهو أضعف السلاحين وأوهاهما فليس لذلك الا معنى واحد . وهو أن تهلك أشراف الناس وفضلاؤهم في سبيل حياة أدنيائهم وأنذالهم

ان الدعاء الى البر والاحسان والرحمة والشفقة والعدل والانصاف والصدق والاخلاص في هذا العصر انما هو حيالة ينصبها الدهاة الماكرون للضعفاء الساذجين ليخدعوهم بها عن مائدة الحياة التي يجلسون عليها . فيستأثروا بها من دونهم . فلا يدعو الداعي الى الكرم الا لينقل ما في جيوب الناس الى جيبه . ولا الى العفو الا ليصيب بشره من يشاء دون أن يناله من الشر شيء . ولا الى القناعة الا ليتخلص من مزاحمة المزاحمين له على أغراض الحياة ومطامعها . ولا الى الصدق إلا ليستمتع وحده بثمرات الكذب ومزاياه .

كلنا يكذب فلمَ يعيب بعضنا بالكذب بعضاً . وكلنا يبسم لعدوه وصديقه ابتسامة واحدة فلم نستنكر الرياء ، وكلنا يطمع في أن تكون له وحده جميع خيرات الارض وثمراتها من دون الناس جميعاً فلم نستفظع الطمع ، وكلنا يتربص بصاحبه ليختلس عما في يده فلم نشكو من الظلم ؟

انا لا نفعل ذلك الا لأنا نريد أن نستخدم الفضيلة في أغراضنا ومآربنا كما استخدم رؤساء الدين الدين في العصور الماضية . وكما استخدم رجال السياسة الوطنية في العصر الحاضر

يجب أن يتعلم الطفل من أول يوم يجلس فيه أمام مكتب مدرسته ان الموجود في الحياة غير الموجود في الكتب وان قصص الفضائل التي يقرأونها ونوادر المروءات والكرم والايثار وأحاديث الشهامة والشجاعة وعزة النفس وأباتها انما

هي روايات تاريخية قد مضت وانقضى عهدها حتى لا يصبح ذاهلا عن العالم يوم ينكشف له وجهه ويرى سوآته وعوراته . وحتى لا يضيع عليه عمره بين التجارب والاختبارات

ولو كنت أعلم من اصول الرذائل وقواعدها فوق القدر الذي اعلم منها لا لّفت للناشي، كتاباً دراسياً ابين له فيه كيف يكذب التاجر ، ويغش الصانع ، ويلفق المحامي ، ويدجل الطبيب ويختلس المرائي ، ويرائي الفقيه ، ويصانع السياسي ، ويتقلب الصحافي . ثم أقول له هذه هي الحياة وهذا هو سبيل العيش فيها ان أردتها . فان لم تردها فدونك مغارة موحشة في قمة من قمم الجبال العالية فعش فيها وحدك بعيداً عن العالم وما فيه . وكل مما تأكل حشرات الارض واشرب مما تشرب منه حتى يوافيك اجلك

أنا لا أدعو الى الرذيلة بل الى سعادة الحياة وهنائها وهو ما أسميه الفضيلة . لاني اعتقد ان الشر لا يقاوم في العالم الا بالشر . وان حامل السيف لا يغمده في غمده الا أمام حامل سيف مثله . والسيل الجارف لا يقف عن جريانه الا اذا وجد في وجهه سداً يدفعه . وان الظالم لا يظلم الا اذا وجد بين يديه ضعيفاً . والمحتال لا يحتال الا اذا وجد أمامه غبياً . وان الناس لا يتحابون ولا يتحاجزون ولا يأمن بعضهم بأس بعض الا اذا برزوا جميعاً في ميدان واحد يتقلدون سلاحاً واحداً في فضاء واحد

ما أجمل الفضيلة وما أعذبها وما أجمل العيش في ظلالها لولا أن شرور الاشرار قد حالت بيننا وبينها . فرحمة الله عليها . ووا أسفا على ايامها وعهودها .

مررت على الفضيلة وهي تبكي فقلت علام تنتحب الفتاة
فقالت كيف لا ابكي وأهلي جميعاً دون خلق الله ماتوا